اعترافات
رجل
يحترم
النساء

# دعوة غرامية خاصة من عالية

كنا نتحدث عن رواية عالية ممدوح الأخيرة «غرام براجماتي»، حين سألني: «هل تؤمن، بالفعل، أن هناك كتابة خاصة بالمرأة»؟ وكان ردي أن هناك، بلا شك، عوالم لا تهجس بها سوى الأُنثى، لكن الكتابة تبقى واحدة والأدب واحداً، لا تعترف بجنس أو سن أو عرق أو جنسية. وكانت ناقدة بريطانية قد طرحت عليّ، في العام الماضي، سؤالاً عن الفرق بين ما تكتبه المرأة العربية وما يكتبه الرجل، وجاء السؤال بمناسبة الفورة الجديدة للروايات التي تصدر بأسماء نساء في السعودية. وقلت لها إن الرواية كانت، حسب دارسي الأدب، وليدة المدينة والحياة المدينية. وشخصياً، فإنني أعتبر الرواية ابنة التجربة الحياتية الواسعة، أي ابنة الشارع ومكان العمل والنادي والملهى والحانة والأسفار وحياة الليل. وكلها عوالم كانت، ومازالت إلى حد كبير، مغلقة على النساء في بلادنا. لذلك تحركت المرأة الكاتبة في فضاء محدود، ما بين بيتها وعالمها الداخلي، إلى أن جاءت ثورة الإنترنت وجاءت لها بالعالم إلى مخدعها.

عالية ممدوح، الكاتبة العراقية الدؤوب، لم تعرف حياة العزلة. لقد نزلت إلى ميدان العمل والنشاط الأدبي وهي يافعة. وسافرت وأقامت في دنيا الله الواسعة. وكانت لها صداقاتها و«مصاحباتها» التي سجلتها في العديد من الكتب والروايات. مع هذا، فقد اختارت في روايتها الجديدة أن تنسحب إلى داخل شقتها الصغيرة وأن تتحرك في ثلاثين متراً مربعاً، ما بين السرير والمطبخ وخزانة الملابس وجهاز الموسيقى والمنضدة التي يربض عليها هاتف يسجل الرسائل الصوتية من دون أن تمتد يد صاحبة الشقة لترفع السماعة وترد على الحبيب المفترض. إنها مساحة كافية لنسيج روائي ممتع وحميم ولا يستعير من فضاءات الخارج سوى نسمات قلائل. كأن الأحداث تدور تحت جلد الراوية، سواء تكلمت بلسان البطل أم بلسان البطلة، في لعبة من تبادل الأدوار والتتابع في السرد.

شخصيتان رئيسيتان هما راوية وبحر، تعيش كل واحدة منهما في بلد أُوروبي وتحمل نصفها العراقي الشجي. لكن القارئ الشغوف بما وراء الكلمات يقتنص شخصية ثالثة مضمرة أو غير معلنة، هي تلك الشقة التي تتقشر جدرانها وتطل الرطوبة برأسها من وراء أرفف الكتب وخزانات المطبخ وسقف الحمام. إنها شخصية غير إنسانية، لكن في مقدورها أن تعكس مزاج صاحبتها وتذكرها بأن السنوات تمر والروح تتهدل ولا بد من شد مستمر للمعنويات ولعضلات القلب واستحضار الحب حتى ولو كان لعبة صوتية. إن شقة عالية ممدوح تتنفس مثل البشر، وتحزن وتفرح مثلهم، وتشتاق إلى هذا وذاك وتلقي بهمومها في حضن ساكنة المكان الذي يتحرر من ضيق أمتاره المربعة ليصبح في رحابة حياة كاملة. هنا عاشت وهنا عشقت وهنا ستقاوم العزلة والانطفاء.

هل يمكن لرجل أن يكتب رواية مثل هذه؟ أعود إلى حديثي مع صديقي الذي كنا بدأناه في أول الصفحة. لقد قرأنا روايات تدور، بالكامل، في زنزانة ضيقة، أو في كهف تحت الأرض، أو في كابينة مصعد عالق بين الطوابق، أو في برج منعزل، أو على متن قارب تائه في البحر، بين الموج والسماء، كما في «العجوز والبحر». هل المكان المختصر هو البطل أم الخيال الشاسع للروائي؟ الخيال المدعوم بمؤونة الذاكرة من روائح وأصوات وسحنات ومذاقات تحضر عند استدعائها وكأنها لم تتوارَ بل ربضت، خلف الباب الموارب، تنتظر لحظة مثولها بين يدي كاتبها ورهن إشارته.

كيف يمكن لذاكرة امرأة أن تحمل جينات تنم عن بصمة وراثية أكثر شفافية من بصمة الذاكرة الرجالية؟ سؤال نناقشه، أنا وصاحبي، ونحن نتحدث عن «غرام براجماتي» ونؤشر ما فيها من حميميات لا يمكن أن تنام إلا تحت جلد حساس يكاد يتشقق من وفرة ما حمل وتحمّل. هل من المعقول أن يفتح كاتب رجل خزانة ثيابه ويتأمل ما فيها، مستعيداً حكاية كل ثوب وذكرى ارتدائه في هذا العشاء أو تلك السهرة؟ إنها التفاصيل الهامشية في حياة الرجل، لكنها المواقف الجوهرية التي تتجمع مثل قطع السيراميك الصغيرة وغير المنتظمة والتي تشكل كيان المرأة. ولهذا السبب، أعترف لكم بأنني أتلذذ، أكثر، بمطالعة ما تكتبه الروائيات العربيات، حالياً، وأجد فيها ما يخفى على سواهن.

للمراسلة والتواصل: rajul@zahramag.com